

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة هذه الطبعة

المؤلف ونسبة كتاب التبيان إليه:

هو عبد الله بن بُلْكَيْن بن باديس بن حَبُوس الصَّنْهَاجِي: آخر ملوك غرناطة، من الدولة الصنهاجية، في أيام ملوك الطوائف بالأندلس، وليها بعد وفاة جده باديس بن حبوس سنة ٤٦٥هـ، واستمر فيها إلى أن هاجمه يوسف ابن تاشفين وتغلب عليه سنة ٤٨٣هـ، وأخذه معه في عودته إلى مراكش، وضم إليه أخًا له اسمه تميم، وأنزلهما بالسوس الأقصى، وأقطع لهما إلى أن هلكا، فاضمحل ملك «بلكانة» من صنهاجة ومن إفريقية والأندلس أجمع.

وهو صاحب كتاب «التبيان» الذي نقدم له اليوم، وهذا الكتاب رآه النباهي مؤلف «تاريخ قضاة الأندلس» ونقل عنه، وسماه النباهي ص ٩٣: «التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة» ثم نقل عنه بعض الأخبار، ونسبها إلى الأمير عبد الله بن بلكين بن باديس بن حبوس هذا.

ثم كرر النباهي النقل عنه مرة أخرى فأورده في ص ٩٧ بقوله: ومن الكتاب المسمى «بالتبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة» تصنيف أميرها عبد الله بن بلكين بن باديس بن حبوس، وقد تكلم في أمر المرابطين، فقال ما معناه: «إن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، لما استقر بسبته، يروم عبور البحر برسم الجهاد في الأندلس، وجه إليه الأمير عبد الله المتقدم الذكر، قاضيه ابن سهل، رسولا... إلخ».

موضوع كتاب «التبيان»:

كتاب التبيان عبارة عن مذكرات في ترجمة حياة الأمير عبد الله بن بلكين وحوادث عصره، وهو عصر ملوك الطوائف، ويتناول فيها مقدم بنى زيرى إلى الأندلس، وإمارة والد جده حبوس بن ماكسن، ثم إمارة جده باديس بن حبوس، وحوادث عصره، وحروبه وسير ملوك الطوائف المعاصرين، ومقدم المرابطين وتدخلهم في شئون الأندلس، ثم يتناول حوادث حياته الشخصية، حتى انتهاء ملكه واستسلامه للأمير المسلمين يوسف بن تاشفين.

وقد كتب هذا السفر عبد الله بن بلكين أثناء حياته في المنفى.

هذا وقد أخرج لنا الأستاذ ليفى بروفنسال هذا الكتاب بعنوان «مذكرات

الأمير عبد الله» وطبعته دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٥٥م.

أما نحن في طبعتنا هذه فقد آثرنا التسمية الصحيحة والحقيقية لهذا

الكتاب، وهى ما صرح به المؤرخون القدامى الناقلون عن كتاب الأمير

عبد الله.

د. على عمر

القاهرة فى فبراير سنة ٢٠٠٦م

مقدمة الطبعة الأولى

إنَّ المصنَّف الذي سيوجه الجزء الأكبر من نصِّه هنا - وهو كلُّ ما عُثِر عليه لحدِّ الآن - سبق أن عُرِف لدى كلِّ من درس تأريخ الأندلس بعض الشيء، وعلى الأخصَّ العهد المسمَّى بعهد ملوك الطوائف من هذا التأريخ، والموافق إجمالاً للقرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ولقد نشرتُ منه، في فترتين، أولاً ثلاث قطع، ومن ثمَّ قطعتين واسعة كلِّما اكتُشف شيءٌ منها، وذلك في مجلة «الأندلس» الصادرة في مدريد في عام ١٩٣٥ - ٣٩ وفي عام ١٩٤١، وستظهر ترجمةٌ باللغة الإسبانية، بعد فترة وجيزة، بتوقيعي وتوقيع زميلي وصديقي الأستاذ، غرسية غومس، للمجموع الذي أُلِّف بين أجزاءه اليوم، ما عدا الصفحة الأولى، وقراعاً طويلاً يؤسف له في وسط الكتاب، وستصحب هذه الترجمة بمقدِّمة مفصَّلة وبمجموعة من الملاحظات التاريخية والجغرافية أُحيلُ إليها منذ الآن القارئ الذي يرغب أن يطلِّع بتفصيل على المؤلِّف الذي أنشره اليوم وعلى قيمته الأدبية والتاريخية.

سأقتصر هنا إذاً على بعض الإشارات الأساسية، فليس من المألوف أن نجد في تأريخ العالم العربي ملوكاً أو شخصيات رفيعة اعتنوا بتسطير حياتهم، فكتبوا مذكراتهم لفائدة معاصريهم أو الأجيال القادمة، إنَّ هذه الملاحظة لتصدق على الغرب الإسلامي أكثر منها على الشرق، فإذا وُجد في الغرب الإسلامي بعض من يترجم لنفسه من الشخصيات الهامة كمثل ابن خلدون وابن الخطيب في القرن الثامن (الرابع عشر الميلادي) فلا يعرف

من هذا الصنف التاريخي إلا مصنفٌ واحدٌ يذكر، وهو كتاب البيذق صاحب المهدي ابن تومرت مؤسس الموحّدية، وقد وقّعتُ منذ أكثر من ربع قرن على مخطوط له بمكتبة الأسكوريال في إسبانيا ظلّ مجهولاً إلى ذلك الحين، وإنّه لتوفيق آخر ليس أقلّ سعادة من الأوّل، أن أحصل، بعد سنين طويلة، وجزءاً بعد جزء، على مصنفٍ لترجمة شخصية لا يقلُّ أهميّة عن الأوّل، وهو مصنفُ الأمير عبد الله، الذي كانت كراريسه مبعثرة بين مجموعة كثيفة من المخطوطات المهملة منذ ستة قرون على الأقل، في جناح تابع لمسجد القرويين بفاس.

وقد كنا نعرف، بفضل إشارة واردة في كتاب «الحلّل الموشية» المجهول المؤلّف، أن الأمير عبد الله كان قد دوّن تاريخاً عن الدولة التي أسّستها أسرته في إسبانيا والتي كان هو آخر ممثليها، وعندما أصدرتُ في ١٩٣٤ أوّل طبعة للقسم المتعلق بالأندلس من كتاب «أعمال الأعلام» لابن الخطيب، جلبت انتباهي الفقرة الآتية (ص ٢٩٩): «وقفتُ على ديوان بخطّ عبد الله بن بلُكّين ألفه بعد خلعه بمدينة آغمات وقرّر فيه أحواله والحادثه عليه ممّا يستظرف من مثله، أتحنّني به خطيبُ المسجد بأغمات، رحمه الله» ويفضل إشارة أخرى وردت في نفس الكتاب، نعرف أنّ ابن الخطيب قد زار آغمات وزار قبر المعتمد بن عبّاد في سنة ٧٩١ (١٣٩٠) فيمكننا أن نتساءل بأن المخطوط الذي استعملناه، إذا لم يكن هو نفس هذه النسخة، فهو على الأقل نسخة ثانية كتبت عن الأصل وقُبلت معه، كما تثبت ذلك الإشارة المتردّدة: «صحّ، أصلٌ».

وأخيراً، اكتشفت لي صدفة من صدف المطالعة العنوان التام لمذكرات عبد الله: ففي فقرة من كتاب «المراقبة العليا» (ص ٩٧) وهو مصنف في مراتب القضاء بالأندلس لمؤلفه المشهور ابن الحسن النباهي (وقد نشرته في القاهرة سنة ١٩٤٨) يتبين أن كتاب عبد الله كان موسوماً بـ «التبَيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة».

إن هذا العنوان يعلن أحسن إعلام عما يُقصد منه: فالمؤلف الذي عُزل ونُفى قصد إلى سرد تاريخ دولته وظروف عزله.

* * *

من كان الأمير عبد الله هذا، وأية قيمة يجب إعطاؤها إلى كتابه؟ فلاكتف هنا بتلخيص ما نشرته عنه أخيراً في الطبعة الجديدة لدائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الفرنسية، ج ١، ص ٤٥):

كان عبد الله بن بُلْكَيْن بن باديس حَبُوس بن زيري الملك الثالث والأخير لمملكة غرناطة التي أسسها فرعٌ منحدرٌ من عائلة بني زيري البربرية الصنهاجية، وذلك بعد سقوط الخلافة الأموية بقرطبة، وُلِدَ في سنة ٤٤٧ (١٠٥٦) وعُيِّنَ عند وفاة أبيه بُلْكَيْن سيف الدولة في عام ٤٥٦ (١٠٦٤) كولي عهد لجدّه الأمير باديس بن حَبُوس، ثمّ اعتلى بعده عرش غرناطة في سنة ٤٦٩ (١٠٧٧) بينما أصبح أخوه تميم المُعزّ مستقلاً في مالقة، ولم تكن دولة الأمير عبد الله إلا سلسلة طويلة من الاضطرابات في داخل مملكته، والمشادات المسلّحة مع جيرانه من الأمراء المسلمين، والمواطآت مع ملك قشتالة ألفونس السادس، وساهم عبد الله في وقعة الزلاقة ومحاصرة حصن ليّط عند تدخّل المرابطين في إسبانيا، لكن اتفاقته مع الملك النصراني أدّت

به إلى ضياع عرشه، فقد جاء الأمير المرابطى يوسف بن تاشفين لمحاصرته فى غرناطة عام ٤٨٣ (١٠٩٠) فاضطراً إلى أن يسلم نفسه إليه، فعزل عن ملكه وأرسل إلى المنفى بمدينة آغمات، فى جنوب المغرب الأقصى، حيث انتهت حياته.

أما كتابة عبد الله لمذكراته، فقد كانت أثناء إقامته الإجمارية فى آغمات، وإن هذه الترجمة الشخصية تكون أعظم مجموعة وثائق نملكها عن تأريخ ملوك الطوائف وأقلها تحويراً، كما نستطيع أن ندرك ذلك بسهولة، وعلى الرغم من الاستطرادات الطويلة التى يحاول فيها المؤلف أن يبرر موقفه السياسى أمام الأخطار التى كانت تهدم مملكته، فإن كتاب «التبيان» يقدم لنا سرداً مفصلاً جداً لجميع الحوادث التى أدت إلى استيلاء ألفونش السادس على مدينة طليطلة عام ٤٧٨ (١٠٨٥) وإلى تدخل المرابطين فى شبه جزيرة إبريا فى السنة التالية.

كما أن مذكرات عبد الله هى وثيقة سيكولوجية من الطراز الأول، يساعد بصورة أفضل من كتب التاريخ التى ألقت من بعد، على الحكم على حالة الانحلال الاجتماعى والسياسى فى الأندلس قبل معركة الزلاقة وبعدها، وعلى التقدم الذى حققه فى هذا الوقت أنصار استرجاع إسبانيا المسلمة فى النصرانية، ومن جهة أخرى، إن قصص الحوادث السابقة على حكم الأمير عبد الله نفسه هو أيضاً أمرٌ جديدٌ وهامٌ جداً، ويجب إذاً أن نعتبر مذكرات ملك غرناطة كدليل مرشد لتأريخ الطوائف الغامض، وذلك ابتداءً من العصر الذى تنتهى فيه مؤلفات ابن حيان، وإن هذه الفترة التى سأصفها بحول الله فى الجزء الرابع فى كتابى «تأريخ إسبانيا الإسلامية» ستوضح بصورة أوسع

وتحت ضوء جديد بفضل هذا الحصول السعيد على وثيقة غنية لا يرتاب فيها.

* * *

إن مخطوط مذكّرات عبد الله يحتوى فى مجموعته على ٨٠ ورقة من القرطاس السحيك ومن القطع الكبير (٢٣ × ٣١ سنتيمتر) وهو مسجّل فى مكتبة جامع القرويين بفاس تحت رقم ١٨٨٦، خطّه من الخطّ المبسوط الأندلسى، والنسخة على العموم فى حالة جيّدة عدا ورقتين ممزقتين جداً.

وقد أرفقنا مع النص ملحقين يحتويان على فقرات غير منشورة من كتاب «البيان المغرب» لابن عذارى المراكشى، ومن كتاب «الإحاطة فى تاريخ غرناطة» لابن الخطيب، يتعلّق هذا الذيل بالأمير عبد الله نفسه وبشخصيتين هامّتين فى دولته، وسيجد القارئ خريطة تساعده فى الوقوف على أهم المناطق الجنوبية فى إسبانيا مما جرى ذكرها فى النص.

أودّ فى الختام أن أنبّه قرائى الذين سيستغربون لبعض التعبيرات أو لبعض الصياغات فى تأليف الأمير عبد الله إلى أن لغته، مع أنها صحيحة، قد تأثرت إلى حدّ بالغة العامية الأندلسية، وأنه يلزم الرجوع بصورة خاصة إلى «ملحق القواميس العربية» لدوزى لفهم بعض الألفاظ التى تبدو خاطئة.

وليس من الضرورى أن أنبّه القراء من جهة أخرى إلى أن العناوين التى أضيفت داخل النص للتفريق بين محتويات الفصول لم تكن موجودة فى النص الأصيل.

ا . ل . ب

باريس ٢٦ يونيه ١٩٥٥

